خير الهدي هدي المصطفى ﷺ

١٧

فمن يشفع للخلائق

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد ميساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

يا شَفيعَ الخَلقِ يا مُحمَّد!!

ودَخَلَ (جَميلٌ) إلى البيتِ؛ وهُوَ يَحمِلُ في يَديهِ بَعضَ الأغراضِ، فلمَّا ألقَىٰ السَّلامَ، قالَ: لقدْ قرَأتُ اليَومَ حَدِيثاً نبويّاً فيهِ مِنَ المَعانِي والفَوائدِ الشَّيءُ الكَثِيرُ.

فقَالَ (أبُو الخير): إذَاً أَسْمِعْنَا مِمَّا قَرأْتَ.

فجَلَسَ (جَميلٌ) إلى جِوارِ أُختِهِ (دانية) ورَاحَ يقرأُ:

فِي صَحِيحِ البُخاريِّ: عَنْ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: كُنَّا معَ رسول الله ﷺ فِي دَعْوَةٍ، فرفَعَ إليهِ الذِّرَاعَ، وكَانَتْ تُعجِبُهُ، فَنَهسَ مِنْها

نَهْسَةً[1] ، وقالَ: «أنا سيِّدُ النَّاسِ يومَ القيامَةِ ، هَل تَدرُوْنَ مِمَّ ذَاكَ؟

يَجمَعُ اللهُ الأوَّلِينَ والآخِرينَ في صَعِيدٍ واحدٍ ، فَيَنظُرُهُمُ النَّاظِرُ ، ويُسمِعُهم الدَّاعي ، وتدنُو مِنْهم الشَّمسُ ، فَيبلغُ النَّاسُ مِنَ الغَمِّ والكَرْب مَا لا يُطِيقُونَ ، ولا يَحتَمِلُون ، فيَقُولُ النَّاسُ: أَلا تَرَوْنَ ما أَنتُمْ فِيهِ إلى ما بَلَغكم؟ ألا تنظُرونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إلى رَبِّكُمْ؟

فيَقولُ النَّاسُ لِبَعضِهم بَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ ، فيأتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يا آدمُ ، أنتَ أَبو البَشَر ، خَلَقَكَ اللهُ بيدِهِ ، ونفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وأَمَرَ المَلائِكَةَ فسَجَدُوا لَكَ ، وأسْكَنَكَ الجنَّةَ ، ألا تَشفَعُ لنا إلىٰ رَبِّكَ؟ ألا تَرىٰ ما نحنُ فيهِ ، وما بَلَغَنَا؟!

---

(١) أي: أكل من أطرافها.

فقالَ: إنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَومَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثلَهُ ، ولا يغضَبُ بعدَهُ مِثْلَهُ ، وإنَّهُ نَهانِي عَنِ الشَّجرةِ فَعَصَيْتُ: نَفسِي ، نَفسِي ، اذْهَبُوا إلى غَيرِي ، اذْهَبُوا إلى نُوح.

فَيَأتُونَ نُوحَاً ، فَيقُولُونَ: يا نُوحُ أنتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إلى الأَرْضِ ، وقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً ، ألا تَرىٰ إلى ما نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَّ تَرىٰ ما بَلَغْنَا؟ أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ؟!

فيقولُ: إنَّ ربِّي غَضِبَ اليومَ غَضَباً لَمْ يَغضَبْ قَبلَهُ مِثلَهُ ، ولنْ يَغْضَبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنَّهُ قَدْ كَانَ لِي دَعوةٌ وعُدْتُ بِهَا علَى قَوْمِي ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إلى غَيرِي ، اذْهَبُوا إلى إبرَاهِيمَ.

فَيَقُولونَ: يا إبرَاهِيمُ ، أَنتَ نَبيُّ اللهِ وخَلِيْلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، اشْفَعْ لَنا إِلَىٰ رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى

إلى ما نَحْنُ فِيهِ؟

فيقولُ لَهُمْ: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَومَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغضَبَ بعدَهُ مِثلَهُ، وإنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كِذبَاتٍ[1]، نَفسِي نَفسِي نَفسِي، اذْهَبُوا إلى غَيرِي، اذْهَبُوا إلى مُوسَىٰ.

فَيأتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُونَ: يا مُوسىٰ! أَنتَ رَسولُ اللهِ، فَضَّلكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ، وبِكَلامِهِ على النَّاسِ، اشْفَعْ لَنا إلىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرىٰ إلى ما نَحنُ فِيهِ؟

فَيقُولُ: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَومَ غَضَباً لَمْ

---

(١) وقد صرح القرآن بذلك، فقوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي سأسقم، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ أي إن كانت الأصنام تنطق! وقوله في سارة: أختي، أي في الدين.
وبالتالي فهي ليست من باب الكذب، لكنّه عدّها كذلك لمدى معرفته بمقام اللهِ سبحانه.

يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.

وإنِّي قَتلتُ نَفْساً لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِها ، نَفْسِي نَفْسِي نفْسِي ، اذْهَبُوا إلى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إلى عِيْسَىٰ.

فَيَأتُونَ عِيسَى ، فيقُولُونَ: يا عِيسَى! أَنْتَ رسولُ الله وكَلِمتُهُ ، أَلقَاهَا إلى مَريمَ ، ورُوحٌ مِنْهُ ، وكلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ ، اشْفَعْ لَنا إلى رَبِّكَ ، أَلاّ تَرىٰ إلى ما نَحْنُ فِيه؟

فَيقولُ عيسَى: إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يغضَبْ قبلَهُ مِثْلَهُ ، ولَنْ يَغْضَبَ بعدَهُ مِثلَهُ ، ولَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً ، نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إلى غَيرِي ، اذْهَبُوا إلى مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيأتُونَ ، فَيَقُولُونَ: يا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ رسول الله وخاتَمُ الأَنْبياءِ ، وقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ، اشْفَع لَنا إلى

رَبَّكَ ، أَلاَّ تَرىٰ إلى ما نَحْنُ فِيه؟

فأَنْطلِقُ فآتِي العَرش ، فأقعُ ساجِداً لِرَبِّي ، ثُمَّ يَفْتَحُ عَلَيَّ مِنْ مَحامِدِهِ ، وحُسْنِ الثناءِ عَليهِ شَيئاً لَمْ يفتَحْهُ على أَحدٍ قبلِي.

ثُمَّ يُقال: يا مُحمَّدُ، ارفَعْ رَأسَكَ ، سَلْ تُعْطَهُ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فأَرْفَعُ رَأسِي ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يا رَبِّ ، أُمَّتِي يا رَبِّ ، أُمَّتِي يا رَبِّ».

فَيُقَالُ: يا مُحَمَّدُ أَدْخلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوابِ الجَنَّةِ.

وَهُمْ شُركاءُ النَّاسِ فِيما سِوىٰ ذلكَ مِنَ الأبوابِ.

ثُمَّ قالَ: «والَّذي نَفسِي بِيَدِهِ ، إِنَّ ما بينَ المِصراعَينِ مِنْ مصارِيعِ الجَنَّةِ ، كَما بَيْنَ مكَّةَ وَبُصْرَىٰ».

معنى الشَّفاعةِ

فقَالَتْ (رَوْضَة):

قالَ أَهلُ اللغةِ العَربيةِ: الشَّفاعَةُ هِيَ الانضِمامُ إلى آخَر ناصِرَاً له وسَائِلاً عَنْهُ، وأَكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ في انضِمَامِ مَنْ أَعْلَى حُرمَةً إلى مَنْ هُوَ أَدْنَىٰ. ومِنْهُ: الشَّفاعَةُ فِي القِيامَةِ، قالَ تعالى:

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾

[مريم: ٨٧].

وقَالَ جَماعَةُ الشَّريعَةِ: هيَ فِي الحَقِيْقَةِ مَظهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ رَحمةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنْ شاءَ مِنْ عِبادِهِ في المَوقِفِ العَصِيبِ يومَ القِيامَةِ.

ضَوابطُ الشَّفاعَةِ

وتَابَعَتْ (رَوضَةُ) القَوْلَ:

ولا يَتَصَوَّرنَّ إنسانٌ أنَّ الشَّفاعَةَ هَكذا دُونَ قُيودٍ ولا حُدُودٍ ، بَلْ العَكْسُ تَماماً.

ومِنْ أَهَمِّ ضَوابِطِها وقُيُودِهَا ما يَلِي:

١ ـ لا يَقْبَلُ اللهُ تَعالى شَفاعةَ الغُفرَانِ عَنِ الشُّركِ بهِ ، أَوْ جُحُودِهِ وإنْكَارِ أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ سُبحانَهُ وتَعالى ، فأمرُ الشَّفاعَةِ في ذلكَ أَمرٌ لا مَطْمَعَ فيهِ ، قالَ اللهُ تَعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾.

وحتَّى لَوْ حَاولَ البَعْضُ أَنْ يَطلبَ الشَّفاعَةَ للمُشْرِكِينَ ، فلا فائدةَ تُرجَى مِنْ ذلك ، مِصداقُ

ذلكَ قولهُ تَعالى وهوَ يُصوِّرُ مَشاهِدَ يومِ القِيامَةِ:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

[غافر: ١٨].

٢ ـ وأمَّا فِي غيرِ الشِّركِ باللهِ أَوْ جُحُودِهِ، فَقُبولُ الشَّفاعَةِ أَوْ رَفْضُهَا مُرْتَبِطٌ بِمشيئَةِ اللهِ وإذْنِهِ، فَهُوَ وَحدَهُ، إنْ شاءَ قَبِلَهَا، وإنْ شاءَ رَفَضَها، مِصْدَاقُ ذلكَ قَوْلُهُ تَعالى:

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٦ ـ ٨٧].

قال المُفسِّرون: مَعْنَىٰ لا يملِكُونَ الشَّفاعَةَ، أي: لا يَمْلِكُ النَّاسُ في ذلكَ اليَوْمِ أَنْ تُقْبَلَ شفاعةُ أحَدٍ فِيهم، إلاّ مَنِ اتَّخذَ عند الرَّحمنِ عَهْداً، وذَلِكَ بالإيمانِ باللهِ وَبِرُسُلِهِ وبِكُلِّ

ما جاءَ مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ.

وبالتَّالِي ، فللهِ أَنْ يَقبلَ دَعْوَةَ مَنْ يَشاءُ من عبادِهِ إذا دَعاهُ أنْ يُنزِلَ خَيراً على عَبْدٍ آخرَ مِنْ عِبادِهِ ، أو يَدْفَعَ عَنْهُ ضُرًّا ، أو يَغْفِرَ لَهُ مِنْ خَطِيئاتِهِ.

سَواءً كَانَ ذلكَ في الحَياةِ الدُّنيا مِنَ الحَيِّ للحَيِّ ، أو مِنَ الحَيِّ للمَيتِ ، أو كانَ ذلكَ يومَ القِيامَةِ.

ودُعاءُ الأخِ لأخيهِ نَوعٌ مِنَ الشَّفاعَةِ فيهِ عِنْدَ اللهِ ، فلا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَمنَحَ اللهُ فَضلَهُ لِعبدٍ مِنْ عبادِهِ إكراماً لِشَفاعةٍ يُوجِّهُهَا عَبدٌ آخرَ مُقَرَّبٌ عِنْدَهُ.

٣ ـ لا تنفَعُ الشَّفاعةُ في يومِ القِيامَةِ إلاّ بإذنِ اللهِ تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩].

قالَ المُفسِّرُون: أي يَومئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ أحَداً إلا شفاعةَ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ بالشَّفاعَةِ ورَضِيَ لَهُ قَوْلاً ، فإنَّ شَفاعَتَهُ قَدْ تَنْفَعُ إذا شاءَ اللهُ استِجابَتَها.

وبالتَّالي: فالشَّفاعَةُ كالغُفْرانِ ، تدخُلُ في بَابِ فَضْلِ اللهِ وَكَرَمِهِ ، فإنْ شاءَ قَبِلَهَا ، وإنْ شاءَ لم يَقْبَلْهَا ، قالَ اللهُ تعالى وهُوَ يُحدِّدُ الضَّابِطَ مِنْ ضَوابطِ الشَّفاعَةِ:

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

المَقَامُ المَحمُودُ للنَّبيِّ ﷺ

وقالَ (أَبو الخَيْر) تَعقِيباً على قَوْلِ ابنتِه (روضة):

وهُناكَ عَددٌ كبيرٌ مِنَ الشَّفاعَات ، لَكِنَّ الله تعالى.. ومِنْ فَضْلِهِ وكَرَمِهِ.. اختصَّ النَّبيَّ ﷺ بِنَوعَيْنِ مِنْهَا ، وهُما:

١ ـ الشَّفاعَةُ فِي إِدْخَالِ طائفةٍ مِنَ المُؤمنينَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسابٍ.

٢ ـ الشَّفاعَةُ العُظمَى: وهيَ الَّتي سَتَكُونُ فِي أصعَبِ المَواقِفِ ، حيثُ ـ كَما جاءَ في الأحاديثِ الشَّريفةِ ـ يَجتمِعُ كُلُّ الخَلائقِ في صَعيدٍ واحدٍ ، وتَدنُو الشَّمسُ مِنْ رُؤوسِ الخلائقِ ، ويُلْجِمُ العَرَقُ النَّاسَ وَ...!!

وَمِنْ شِدَّةِ المَوقِفِ ، ومِنْ طُولِ زَمنِ المَوْقِفِ ، يتمَنَّى النَّاسُ أَنْ تَنفَضَّ الحِكايةُ ، حتَّى ولَوْ كانَ الأمرُ إلى جَهَنَّمَ!!

ويَنْطَلِقُ النَّاسُ إلى أبيهِم آدمَ عليهِ السَّلامُ ، فيَعْتَذِرُ ويَدُلُّهم على شيخِ الأنبياءِ نُوحٍ ،

فينطلقُونَ إليهِ فيعتَذِرُ ويَدُلُّهم على مَنْ بَعْدَهُ.. وهكذا يَزْدَادُ النَّاسُ حَيرةً وَصُعوبَةً... إلى مَنْ يَذْهَبُونَ للشَّفاعَةِ؟!

فَيدُلُّهم عيسىٰ عليهِ السَّلامُ على خاتَمِ الأنبياءِ وأَفضَلِهم مُحمد ﷺ.

ويقُومُ الرَّسولُ.. ولمَّا يصِلُ إلى عَرشِ الرَّحمنْ يسْجُدُ سَجْدَةً طَوِيْلَةً، مُتَذَلِّلاً للهِ.. حامِداً إيّاهُ شاكِراً لَهُ..

ويَأتِيهِ النِّداءُ: يا مُحمَّدُ! ارْفَعْ رَأسَكَ، وسَلْ تُعْطَه، واشْفَعْ تُشَفَّعْ.

ويَشْفَعُ الرَّسُولُ ﷺ لِجَمِيعِ الخَلائِقِ.. لِيبدأَ الحِسابُ.

قال العُلماءُ: وهذا هُوَ المَقامُ المَحمودُ الَّذي خبَّأَهُ اللهُ لِنَبيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلواتُ اللهِ عليه، لِيَكُونَ في ذلكَ المَوقِفِ، وأَمامَ كُلِّ الخَلائِقِ، وبَيْن

يَدي اللهِ تَعالى ، هُو صاحبُ المَقامِ المَحمودِ ، قالَ اللهُ تَعالى مُخَاطِباً حَبِيْبَهُ مُحَمَّداً ﷺ: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ نَنْضَمَّ تَحتَ لِواءِ شَفَاعَتِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

والحَمْدُ لله رَبِّ العالمين